جهاد المجمعيين السوريين
في إقرار الألفاظ والأساليب المعاصرة

أ.د. عيسى علي العاكوب(*)

- كلماتٌ مِن أجل الفَهْم:

رُبّما لا يعلَمُ كثيرٌ مبْلَغَ الجُهْدِ الذي يبذلُه أعضاءُ مَجْمَعِ اللّغة العربيّة في دِمَشْقَ، في إقرار الألفاظِ والأساليب التي يُدْخِلُها تيّارُ الحياةِ المتدفِّقُ في الاستعمالِ اللّغويّ العامِّ الحاضرِ، ولا يكونُ لَدَيْهم أيضاً تصوُّرٌ دقيقٌ لِجَلساتِ المناقَشةِ والنّظَر، والتّفحّصِ والسَّبْر، التي يَجلِسُها أعضاءُ المجْمَع لِساعاتٍ متطاولةٍ، على امتداد أسابيع العام.

ولَعلَّ هؤلاءِ الكثيرَ معذورونَ في ذلك؛ لِأسبابٍ لا مجالَ هنا لِلْإفاضةِ في الحديثِ عنها. ومِن بابِ اليقين أنّ عِلْمَ جَمْهَرةِ النّاسِ ضَروراتِ تأكيدِ الصِّحّةِ والسّلامةِ لِألفاظِ لغتهم وأساليبها أقلُّ بكثيرٍ مِن عِلْمِهم عَمَلَ أعضاءِ المجْمَعِ العِلْميّ العربيّ، كما سُمِّيَ عندَ إحْداثِه في عام ١٩١٩م، في هذا المجالِ العِلْميّ الدّقيقِ جدًّا.

وههنا مَنْدُوحةٌ لكي أشكُرَ لِلشَّهْباءِ الثّقافيّة، أو لِلْبيضاءِ الثّقافيّة كما هو أَحَدُ أسماءِ حلَبَ القديمةِ، إتاحتَها الفُرْصةَ لي لكي أُحَدّثَ جمهورَها

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق، وأستاذُ البلاغةِ والنقدِ في جامعة حلب.

الجميلَ، بتركيزٍ وإيجازٍ، عن فلسفةِ تحقيقِ الصّحّةِ والسّلامةِ لِألفاظِ لُغتِنا الأثيلةِ الجميلةِ وأساليبها؛ هذا التّحقيقُ الذي ينهَضُ به الجنودُ المجهولونَ مِن أعضاءِ المَجْمَع الدّمشقيّ، خلائفُ محمّد كُرْدْ عَلِيّ وعيسى إِسْكندر المعلوف وعبدِالقادر المبارك وحُسْني سَبَح وشاكرِ الفَحّام ولَيلى الصّبّاغ وعبدالله واثق شهيد. هذا المَجْمَعُ العَريقُ الذي يقتربُ الآنَ مِن بَدْءِ مِئويّتِه الثّانية في سنة ٢٠١٩م. وإنّ تَواصُلَ جُهودِ المَجْمَعيّينَ في ظِلّ الظّروفِ القاسيةِ التي تُواجِهُها سُورِيَتُنا، القَلْبُ، واحِدٌ مِن أدلّةِ الحياةِ القويّة في رُوحِ هذه الأمّة وجَسَدها.

- في أساسيّات الفِكرة:

تذهبُ الأممُ في طريقِ تحقيقِ الصّحّةِ والسّلامةِ لألفاظِ لُغاتها وأساليبها إلى أمداءٍ قَصِيّةٍ، ويستنفِدُ ذلك مِن عقولِ مُبدعيها جهوداً مُضنيةً. وأنتَ ترى ذلك أكثرَ ما تراهُ عندَ الأمم الرّاقية التي تَزِنُ كلَّ شيء تتعامَلُ معَهُ، وتُقدّرُ كلَّ نتيجةٍ وأثَر، وتحسِبُ حِساباً لكلّ ما تأخُذُ وما تَذَر. نَعَمْ، ذلكم هو صَنيعُ الأمم التي تَرى أنّ إصلاحَ المنطق سبيلٌ لإصلاح العقل، وأنّ سَدادَ القولِ صُورةٌ لِسَدادِ التفكُّرِ والنّظَر، وأنّ مُعجَماتِ الألفاظِ والأساليب هي خزائنُ فِكْرِ النّاسِ، ومُستودَعاتُ خفيّاتِ خواطِرِهم. وابتغاءَ قدرٍ أكبرَ مِن الإيضاح سنجعَلُ حديثَنا المُوجَزَ هنا موزَّعاً على جُمْلةِ فِكَرٍ، نجعلُها مُتّكآتٍ للتّناول:

- الذين يقيمونَ وَزْناً للفِكْر همُ الحريصونَ على تصحيح أداةِ التّعبير عن الفِكْر:

أصحابُ الرّسالةِ والمُهمَّةِ الذين يُهمُّهم إبلاغُ فِكَرِهم إلى الآخَرين همُ الأعنى بإخراجِ محصولِ فِكْرِهم بأدواتِ تعبيرٍ غايةٍ في السّلامة والضّبْطِ والتّدقيق، ترى ذلك دَيْدنَ الأنبياءِ والمُصْلحينَ الرّوحيّينَ والاجتماعيّين،

والأفرادِ الذين يَرَون رسالةً عظيمةً لهم في الحياة دعوةَ النّاسِ إلى ما يحسَبُون أنّ فيه خَيراً وحَقًّا وجَمالاً. ثمّ في الحضارةِ العربيّةِ الإسلاميّة خاصّةً، غدا ضَرْباً مِن المثَلِ الأعلى الجَماليّ فصاحةُ اللِّسان، ورَجاحةُ الجَنان.

- الحِرْصُ على صِحّةِ الأداءِ وحُسْنِه حِرْصٌ على صِحّة المضمونِ والظّفَر بالخُلود:

يُحْرَصُ على صِحّة الأداءِ لأسبابٍ كثيرةٍ ليسَتْ مِن الخَفيّاتِ على أصحابِ الفِطَنِ وأربابِ البصائر. ولعلَّ مِن ذلك، ومِن أهمّه، أنّ أعمارَ الأفرادِ تطولُ بجمالِ أدائهم، ونَصاعةِ بَيانهم، وإشراقِ عباراتهم. وتندَفِنُ الفِكَرُ سريعاً بخَطَلِ أدائها، وفسادِ أدواتِ إخراجِها، وسُوءِ إبلاغها، فيموتُ أصحابُ الفِكَر بموتِ فِكَرِهم التي سارعَتْ إلى أجداثِها بفَسادِ وسيلتِها اللّغَويّة.

ويطالِعُنا عندَ العربِ حِرْصٌ فائقٌ على سُهولةِ الأداءِ وجَمالِه وألْقِه وفصاحته، ولا نَحسَبُ ذلك إلّا لِحَميّةٍ طاغيةٍ لِصَوْنِ بناتِ العقولِ عمّا يَلْحقُها مِن عار فَسادِ الأداءِ وشَناره. ومِثْلَما حَرَصَ الجواهريّ الذي يَبيعُ الحُلِيّ على عَرْضِها بأغلفة وأشكال تُظهِرُ شِياتِ حُسْنِها، ومظاهِرَ فِتْنتِها، تُسمَّى «المَعارض»، التي واحِدُها «مِعْرَضٌ»، حَرَصَ المتكلِّمُ العربيُّ على جَمالِ أرديةِ فِكَرِه، وسَلامةِ أدواتِ تعبيره مِن كلّ شَيْن، حتّى صَحَّ أن يُقال في مُفرَداتِه وأساليبه:

إذا أتاهـــا طالـــبٌ يَسْـــتامُها تكـــاثرَتْ فـــي عينِـــهِ كِرامُهـــا

نَعَمْ، ذَبَّ المتحدِّثُ العربيّ على امتداد تاريخِ هذه اللّغةِ الشّريفةِ المُشرَّفةِ عن حَريم لُغته، وحَمَى حقيقتَها، حتّى أنِفَتْ كلَّ إسْفافٍ وسَقَطٍ ورُذالٍ، وانطبقَ عليها وَصْفُ عَنترَةَ ناقتَه بالقول:

شَرِبَتْ بماءِ الدُّحْرُضَيْنِ فأصبحَتْ زَوْراءَ تَنْفِرُ عن حِياضِ الدَّيْلَمِ

ومِثْلَما سَمَّى العرَبُ نَفَراً مِن الشّعراءِ «عَبيدَ الشِّعْر»، لِأنّ الشّعْرَ استَعْبدَهم واستَفْرغَ مجهودَهم وكانوا خَدَماً له بكُلِّ ما أوتوا مِن قُوى وقُدَر، في مستطاعنا أن نُسمِّيَ كثيراً مِن مُبرِّزي عُلَماءِ العربيّة «عبيدَ الألفاظِ والأساليب»، لِما استعبدَهم مِن صِحّةِ الفِكَر، ورَوعةِ بَناتِ النّظَر، وأناقةِ مُخبَّآتِ الصّدْر، حتّى قال ابنُ المقفَّع: «إنّ الكلامَ لَيَزدَحِمُ في صَدْري فأقِفُ لِتخيُّرِه». نَعَمْ، استعبدَتْ صِحّةُ الألفاظِ والأساليبِ والتّنويعُ فيها رجالاً مِن أهل اللّغةِ والبيان ينطبقُ على الواحِدِ منهم قولُ البُحْتُريّ:

دانٍ على أيدي العُفاةِ، وشاسِعٌ عَنْ كلِّ نِدٍّ في النّدَى وضَريبِ
كالبَدْرِ أفرطَ في العُلُوِّ، وضَوْؤهُ لِلْعُصْبةِ السّارينَ جِدُّ قَريبِ

وكيفَ لا يكونُ ذلك منهم وهم يَتْلُونَ صَباحَ مساءَ حُجّةَ الحَقِّ سُبحانَه على الخَلْق في صِحّة الألفاظِ والأساليب والتّنويع فيها في قوله سُبْحانَه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤]، أي: نَوّعْنا لَهمُ القولَ بأساليبَ مختلفة.

ثُمّ كيفَ لا يكونُ ذلك مِن رجالٍ قالوا مَثَلاً: إنّ النسَبَ إلى «تَغْلِبَ» تَغْلَبِيٌّ، بفَتْحِ اللّام. يقول الرّازيُّ في مُختارِ الصِّحاح: «وتَغْلِبُ»، بكَسْرِ اللّام، أبو قبيلةٍ. والنّسْبةُ إليه «تَغْلَبيٌّ»، بفَتْحِ اللّام، استيحاشاً لِتَوالي الكَسْرَتَيْنِ معَ ياءِ النّسَب.. وربّما قالوه بالكَسْر؛ لأنّ فيه حَرْفَيْنِ غيرَ مكسورَيْنِ، ففارقَ النّسْبةَ إلى «نَمِر». قُلْتُ: يعني أنّ في «نَمِر» حَرْفاً واحِداً غيرَ مكسورٍ؛ فلَمْ ينسُبوا إليه بالكَسْر، بَلْ بالفَتْح فقط.

ومِثْلُ هذا أكثَرُ مِن أن يأتي عليه الحَصْرُ. وفيه التّأكيدُ المُغلَّظُ لاستعبادِ السّلامةِ اللّغَويّة أفذاذاً مِن مُفكِّري العرب وأعلامِ أهل العِلْمِ منهم. فهذا، مَثَلاً، أبو الأسودِ الدُّؤَليّ مُنْتَشٍ بالِغٌ في المفاخَرةِ الغايةَ؛ لأنّه فصيحٌ لا يَلْحَنُ

ويُمعِنُ في تصحيحِ مُفرداته وأساليبه، وذلك إذ يقولُ:

ولَا أقولُ لِقِدْرِ القَوْمِ: قَدْ غَلَيَتْ ولَا أقولُ لِبابِ الدّارِ: مَغْلوقُ

ذلك لأنّ الصَّحيحَ الحَسَنَ أن يُقالَ: غَلَتْ قِدْرُ القومِ، و: بابُ الدّار مُغْلَقٌ.

- حَمْلُ النَّفْسِ على الإتْيانِ بالصّحيحِ الفصيحِ سَيْرٌ بها إلى مقامِ الإنسانيّة الأرفع:

الإنسانُ في التّصوُّر القرآنيّ مُعَلَّمُ البَيانِ، أي إنّ خالِقَهُ العظيمَ سُبحانَهُ ﴿ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ ﴾ [السّجدة: ٧] هو الذي تولَّى تعليمَهُ الإبانةَ عن مقاصِدِه، لكنّ إضعافَ آثارِ هذا التّعليم يحصُلُ في هذه الحياةِ التي يُتاحُ فيها للإنسان حُرّيّةُ التصرُّف والاجتراح في كلّ شيء. ولأنّ منشَأ هذا الإضعافِ حُرّيّةُ الحركةِ على مَسْرَح الحياة، كان لا بُدّ مِن مُغالَبةٍ ومُجاهَدةٍ في هذه الحياة في مجالِ حَمْلِ النّفْسِ على تقويمِ المنطِقِ وتثقيفِ آلةِ البيان؛ لأنّ شَطْراً هائلاً مِن إنسانيّةِ الإنسانِ يَضيعُ بإهمالِ هذه الآلةِ وتَرْكِها على رِسْلِها، تفعَلُ ما تشاء.

- سَدادُ المُغالَبةِ والمُجاهَدةِ لِضَمانِ صِحّة الألفاظِ والأساليب في مَجْمَعِ اللّغة العربيّة:

ما يبذلُه الزّملاءُ الكِرامُ أعضاءُ المجمع مِن جُهد في إقرارِ الألفاظِ والأساليب التي تجِدُّ في حياتنا، بعْدَ الاطمئنانِ إلى صِحّتها بمُوافقتها الاتّجاهَ العامَّ في أشباهِها ونظائرِها في اللّغة العربيّة أو بالعثور على أصولٍ استعماليّة صَحيحة لها، مِن صِنْفِ الأعمال الصّالحة الميمونة إن شاء اللهُ تعالى، لِما له مِن سُهْمةٍ كبيرةٍ في الحِفاظِ على البِنْية الأساسيّة لِصُورةِ اللّغة العربيّة وسَمْتِها الإبداعيّ العامّ. ويَحْكي صنيعُهم صَنيعَ المُشرِّعِ القانونيّ الذي يُوضِح الجائزَ وغَيْرَ الجائزِ، والمُوافِقَ وغَيْرَ الموافِق، مِن ضروبِ السُّلوك والاجتراح.

وينتمي إلى صِنفِ الضَّروريّ والمُلِحّ في هذا الذي نحنُ إزاءه لُزومُ بلوغِ الغاية في التّحقُّق والتّثبُّت والتّبيُّن؛ ابتغاءَ الوصول إلى مَحجّةٍ بيضاءَ ليسَ فيها إلّا الوضوحُ والاطمئنانُ والتّسليمُ. فأعضاءُ المجمع في هذا الشّأن «رُوّادٌ» مُجتهدونَ يَقِظونَ مُؤتمَنونَ، ينطبقُ عليهم مفهومُ الحديث الشّريف: «الرّائدُ لا يكذِبُ أهْلَه». والرّائدُ هو الذي كانت العربُ تُرسِلُهُ لطَلَب الكلأ. وإنّه لَحَقٌّ معلومٌ لَهم لدى الحريصينَ على استمرار بقاءِ أمّتِهم حَيّةً مُفكِّرةً مُبدِعةً أن يباركوا هذا الجُهْدَ المتواصِلَ، وأن يقدِّروا لهم صنيعَهم، وأن يُهيِّئوا لهم أسبابَ الاستزادة مِن هذا الإنتاجِ النافع الذي له دَخْلٌ كبيرٌ في صَوْنِ صورةِ عقْلِ الأمّة ومَجْلَى تفكيرِ المبدعينَ مِن أبنائها، وإسهامٌ واضِحٌ في إنماءِ تقدُّمِ الفِكْرِ والتّفكير في مضمارِ الإبداع العقليِّ النّظَريّ والعَمَليّ.

ضاعفَ اللهُ سبحانَه مَثُوبةَ هؤلاء العالِمينَ العامِلينَ، وسَدّدَ على طريقِ الخير سُراهم ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾. وكتبَه الرّاجي عَفْوَ مولاهُ عيسى بن علي العاكوب.

* * *